الجزء الثاني

من

مجموعة

الدكتور

شبلي شميل

وهو

يبحث في موضوعات شتى عمرانيَّة

طبيعيَّة وعلميَّة وتاريخيَّة وادبيَّة وسياسيَّة تقريريّة

وانتقاديّة وفكاهيَّة

ان اليوم الذي ينصرف الانسان فيه من
تمييق الكلام الى اتقان العمل هو اليوم الذي
تتقوَّم فيه طباعهُ فتقلّ سخافاته ويكثر جدّه ويقلّ
رياؤه وينشط من الذل ويرتقي ارتقاءً حقيقياً ويحق
له حينئذ ان يعد نفسه انسانا

مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر

المقالة الحاديه عشرة

المرأة والرجل وهل يتساويان [١]

مسألة كثر تحدُّث الخاصة بها وذهبوا فيها رأيين متضادين. وطالب القائل بتساويهما بحقوق المرأة المرتّبة على هذا التساوي والتي اهتضمها الرجل في زعمهِ من قانون البشرية صلفاً وعتوًّا او كما تقول المرأة لانهُ هو الذي سنَّ هـذا القانون فآثر نفسهُ فيهِ استبداداً حتى انكر عليهـا النفس التي يفتخر بها على سائر المخلوقات . وانكر هذا الحق من ذهب ضد مذهبهِ ونسب دعواه الى غيرة اعماها الهوى ورأيٍ اضلَّهُ الوهم. ولقد شحذ المتباحثون في المسألة قرائح امضى من القواضب وجرَّدوا ألسنةً احـدَّ من الاسنة وبروا لها اقلاماً اقوم من قدود الهيف اذا اخجلت سمر القنا . وطعنوا بها طعناتٍ اوقع من لحاظهنَّ اذا رنّت سهامها في القلوب . وتجاروا في مضمارها تجاري خيل الطراد في يوم الوغى . فمن آخذٍ بناصر المرأة ارتفع بها الى اوج البشرية وقال ما هي بشرٌ ان هي الاَّ ملك كريم ومن متحاملٍ عليها انحطَّ بها الى حضيض البهيمية وقال ان هي الاَّ متاعٌ خُلق للرجل وليست بشراً سوياً . وكلاهما تجاذب في القول طرفي الافراط والتفريط وادعى نصر الحق وما اتبع في نصرهِ الا الهوى

ولم يفت نبهاء قومنا جولة في حومة هذا المجال فقد سمعتموهم في هذه الجمعية يتباحثون ويتناظرون مستمطرين دراري المعاني من سماء الالفاظ حتى كدنَ يلقطنَ باليد . وشهدتم مواقع نزالهم في حلبة المقتطف الاغر وغيره من الجرائد الوطنية ورأيتم كيف ان هذه الحرب قد اتقدت نارها في قلوبهم وحمي أُوارها في رؤوسهم ونعم المرام . الاَّ انهُ لا يؤاخذني كماة هذه الحرب وفرسانها اذا قلت انهم جالوا بنا الى غير محسم نزاع ووقفوا بنا على غير موقف هـدًى حتى تخيل للقارىء والسامع ان المسألة ككثير من المسائل الخلافية سلسلة لا تنتهي حلقاتها ودور لا يعرف طرفاه وما ذلك في اعتقادي الاَّ لانهم

(١) خطبة تليت في جمعية الاعتدال بالقاهرة ونشرت في المجلد الحادي عشر للمقتطف سنة ١٨٨٦

ولجوها من غير بابها ولذلك رأيت ان اقرعها من الباب الذي يُدخل منهُ وانخعها من الوجه الذي يختلف اليه

* * *

ذهبت طائفة من اهل النظر الى ان المرأة مساوية للرجل في العقل . وفي اعتقادنا ان المبحث طبيعيٌّ محض اعني انهُ من مباحث علم الحيوان المعروف بالزوولوجيا او بالحري من مباحث علم الانسان الذي هو فرع منهُ والمعروف بالانثروبولوجيا ولا يصح ان ينظر اليهِ من غير هذا الوجه او يقطع فيه حكم بدونهِ . والانثروبولوجيا لا كما يفهمهُ المتقدمون علم اقرب الى النظر والاَّ اتسع بنا مجال القول وتهنا في فيافيه ووقعنا في بلبال لا يجمعنا فيهِ سوى فوضى الاختلاف وخرجنا منهُ كما خرجنا اليهِ . وربما تشعبت المسألة دوننا الى فروع كثيرة افضى بنا الولوج فيها الى الاعراض عنها والتوغل في امور جدلية لا طائل تحتها كما هو دأب الذين لا يستندون في بحثهم الى اساس متين مرشد لبرهان المستطلع كابح لجماح المشطّ . ولكن كما يفهمهُ المتأخرون علم يبحث فيهِ عن الانسان من حيث كونهُ حيوانًا وانسانًا معًا في تركيبه وقواه وافعاله فمساق الكلام على هذا المنهج يسهل علينا فهمهُ ويقينا فيه عثرة الشطط فلا نرتفع بهِ محلقين الى « لا أوج » ولا نهبط بهِ سافلين الى « لا قرار » بل نضعهُ في مقامهِ الطبيعي

* * *

واولاً ننظر اليهِ في الانواع اي انواع الحيوان المختلفة . فمن المعلوم لاهل النقد من علماء طبائع الحيوان ان الانثى اشدُّ من الذكر في الحيوانات السافلة واضعف منهُ في الحيوانات العالية ومساوية له في ما كان بينهما وذلك قاعدة مطّردة الا في ماندر والنادر لا يعتدُّ بهِ . فانثى النحل والزنابير والفراش وكثير من الاسماك والحشرات اشدُّ من الذكر (١) وانثى الطير والحيوانات اللبونة وسائر ذوات الفقر العالية اضعف منهُ غالباً .

---

(١) وشاهدنا المقتلة التي تنتشب في قفران النحل اي جماعاتها بين الاناث والذكور والتي تدور فيها الدائرة على الذكور لضعفها عن مقاومة الاناث . وهذه المقتلة البربرية على جانب من الحكمة والاقتصاد لانها تحصل من شهر حزيران الى شهر آب من كل سنة عندما لا يعود للذكور فائدة ويصير لوجودها ضرر وهو اكل جنى النحل . والحكمة لا تعرف الرفق ولا تشفق خلافاً لما يظن بل كثيراً ما تقضي بتضحية البعض حفظاً لحياة الجماهير كما هو شأن السياسيين ايضاً في الاجتماع البشري

ويستفاد من هذا ان امتياز الانثى على الذكر من صفات الحيوانات المنحطة في سلم النشوء وان امتياز الذكر عليها من صفات الحيوانات المرتقية . وسنبين اوجه الامتياز . وهنا الطريق وعر والمسلك صعب فأرجوكم ان تتبعوني فيهِ متزوّدين جانباً من الصبر

ففي الطيور والحيوانات اللبونة التغذية اقوى في الذكر منها في الانثى والدم أشدُّ وفيهِ من الكريات الحمر الصالحة للتغذية اكثر مما فيها ومن الكريات البيض القليلة الصلاحية لها أقل (كوينكود وكرنيلوف) . وفي المليمتر المكعب من دم الرجل مليون من الكريات الحمر اكثر مما في دم المرأة (ملاسز)

* * *

والرجل يأكل اكثر من المرأة ولكنها أنهم منهُ اي انها تشره فيهِ اكثر منهُ . والتنفس أقوى في الذكر منهُ في الانثى واذا تساوى الرجل والمرأة في القد فتسع رئتهُ من الهواء نحو نصف لتر أكثر من رئتها . وهو يتناول من الاكسيجين المطهر للدم اكثر منها وان كانت تتنفس اكثر منهُ وتزيده نفساً واحداً في الدقيقة من سن ١٥ الى سن ٥٠ (كواتلت) . وهو يفرز من الحامض الكربونيك المتحصل من احتراق الانسجة اكثر منها في جميع الاسنان (اندرال وغفرّت) . وحرارتهُ اكثر من حرارتها وكذلك حرارة الديك بالنسبة الى الدجاجة

وقوّة ضغط الدم اعظم في الذكر منها في الانثى وانما نبضهُ ابطأ من نبضها والفرق من ١٠ الى ١٥ نبضة في الدقيقة بين الرجل والمرأة و١٨ بين الاسد واللبوة و١٠ نبضات بين الثور والبقرة و١٢ نبضة بين الكبش والشاة

وعظام المرأة اخف من عظام الرجل. وفي عظامه من المواد الترابية اكثر ومن المواد الحيوانية أقلّ ومن كربونات الكلس اكثر ومن فصفاتهِ اقل مما في عظامها (ملن ادوار)

والرجل يستعمل يمناه اكثر من المرأة والمرأة تستعمل يسراها أكثر من الرجل (دلوني) . ومنكبها الايسر اعظم من الايمن بخلاف الرجل كما في فروع البشر السفلى (هرتين وليفون) والترقوة بالنسبة الى العضد اطول فيها منها فيهِ (بروكا) كما انها اطول في السود منها في البيض

والذكر أعظم من الانثى كما هو معروف في الحيوانات الاهلية . والرجل يزيد المرأة اثني عشر سنتيمتراً طولاً (توبينار) وهي أخف منهُ وان ظهرت اسمن لتغلُّب الشحم فيها الذي يكسب بدنها استدارةً وهشاشة ويستر عضلها بخلاف الرجل فانهُ قليل الشحم نافر العضلات صلب البدن . وهي بارزة الفكين اكثر منهُ في الشعوب الهندوجرمانية (توبينار)

وقدم المرأة اكثر انبساطاً واقل تحدباً من قدم الرجل (دلوني) وذلك يدلُّ على الانحطاط . وذوات الغنج والدلال يحاولنَ اخفاء ذلك بالاحذية المصنعة ذات الكعب المتطاول

وصوت المرأة أعلى من صوت الرجل . وكذلك اصوات اناث الحيوانات أعلى من أصوات ذكورها

وعضل الذكر اغلظ وأشدُّ من عضل الانثى كما في الحيوانات الوحشية والاهلية . وقوَّة المرأة من سن ٢٥ الى ٣٠ مقاسة بالدينامومتر ثلثا قوة الرجل في هذا السن. وحركاته أضبط من حركاتها ولهذا يفوقها هو ولا تدركه هي في فني الموسيقى والتصوير

وجمجمة الرجل اكبر من جمجمة المرأة (بروكا والجمهور) وسعتها في الرجل الابيض ١٤٤٦ سنتيمتراً مكعباً وفي امرأته ١٢٢٦ (هُشك) . والجمجمة اقلُّ ارتفاعاً واطول في المرأة منها في الرجل (بروكا)

ودماغ الذكر اثقل من دماغ الانثى . فدماغ ذكر الكورلاَّ وهو نوع من القرود يزن ٥٤٠ غراماً ودماغ انثاه ٤٧٠ ومعدَّل وزن دماغ الرجل ١٣٢٣ غراماً والمرأة ١٢١٠ والفرق ١١٣ غراماً (بروكا) ولا يحمل هذا الفرق على صغر قد المرأة بالنسبة الى الرجل فان قامة المرأة بالنسبة الى الرجل هي كنسبة ٩٢٧ الى ١٠٠٠ وأما وزن دماغهما فهو كنسبة ٩٠٩ الى ١٠٠٠

وباجماع الانثروبولوجيين مقدم الدماغ الذي هو مقرُّ القوى العاقلة الرفيعة اصغر في المرأة منهُ في الرجل سواءٌ هذّبا او كانا على الفطرة وهذا الفرق ٥٤ سنتيمتراً مكعباً راجحة من جانب الرجل (هشك) . ومؤخر الدماغ الذي فيهِ مركز العواطف اكبر في

المرأة منهُ في الرجل ولهذا قيل ان المرأة تحيا بقلبها اي بعواطفها والرجل يحيا بعقله

ونصف دماغ المرأة الايمن اكبر من الايسر بخلاف الرجل وهذا يفهم منهُ لماذا المرأة تياسر اي تذهب ذات اليسار والرجل ييامن اي يذهب ذات اليمين وهذا ظاهرٌ حتى في عرى ثيابهما وازرارها فان حركة التزرير في المرأة يسارية وفي الرجل يمينية كما يمكن تحققه من ارسال النظر اليهما . وهذا يدل على ان الاختلاف بين الرجل والمرأة من اصل الطبع. ودلوني اول من نبه النظر الى ذلك وقال ان حركة المرأة اليسارية او التقريبية كما يسميها ايضاً دليل على الانحطاط لانها تشاهد في الحيوانات كالقرود وفي فروع البشر السافلة وان حركة الرجل اليمينية أو التبعيدية كما يقول ايضاً دليل على الارتقاء

* * *

فهذا نظر تشريحي وفزيولوجي يبين منهُ هذا الفرق بين الرجل والمرأة وأما من الوجه الادبي فقد اختلفوا في هل المرأة انبل خلقاً من الرجل ام لا . وتوجد مؤلفات كثيرة في مدح المرأة وذمها وقد ذهب مؤلفون كثيرون الى ان المرأة أنهم من الرجل واكسل واشبق وابخل واكثر عجباً وكبراً وحسداً واشد حنقاً وحقداً . وفي العصور الوسطى طرح احد المجامع هذه المسألة مطرح البحث وهي « هل للمرأة نفس » ولا نظن ان احتقار المرأة بلغ هذا القدر في عصر من العصور او عند شعب من الشعوب . وجميع الحكماء والفلاسفة المتقدمين كابقراط وارسطو على ان المرأة احط من الرجل . ويضيق بنا المقام عن استيفاء جميع ما قالوه في ذلك من مدح وذم وتسنيع وتشنيع . فنحن لذلك نغفل اقوالهم ونعتمد لحل المسألة على مباحث المتأخرين المبني اكثرها على علم مقابلة أفعال الانسان المعروف عندهم بالدموغرافيا

من المقرر المتفق عليهِ ان المرأة اقل ارتكاباً للجرائم من الرجل . قال كواتلت والذي يمنعها من ذلك انما هو خجلها وحياؤها وحالها من الرضوخ وعوائدها التي تحجبها وضعف جسدها . وقال غيرهُ أن التسميم الذي هو سلاح الجبناء هو في الغالب سلاحها . وهي أحيل من الرجل وأخدع منهُ لانها أضعف منه والحيلة والخداع سلاح الضعيف . ان استقوتك استعطفتك ببكائها وان استضعفتك قتلتك بكبريائها . والجمهور على أنها محبة ومحسنة

اكثر من الرجل انما احسانها لا يغني ولا يطاق وقلما تفعله الاَّ لغرض ديني

وأما من الوجه البسيكولوجي أو العقلي فمن المقرَّر ان القوى العاقلة تابعة لحالة الدماغ أو بالحري لمركز هذه القوى فيهِ وهو في الحيوان العالي كما تقدم اعظم في الذكر منهُ في الانثى ولذلك كان الذكر اعقل من الانثى باجماع الحكماء والطبيعيين

وقد اتفقت جميع الشرائع على ان تعامل المرأة معاملة القاصر المحتاج الى وصي وسببهُ ما بها من الخفة والطيش . وأما زعماء المساواة فيدعون ان هذه الشرائع قد ضحت المرأة للرجل لان الذين سنوها انما هم الرجال . ووصف علماء الاخلاق المرأة بانها لاهية متقلبة مفرّطة اكثر من الرجل وجميعهم على انها مطبوعة على الخرافات والعناد والتشبه والتمسك بالعادات القديمة اكثر من الرجل وعلى انها مهذار مخواف اكثر منهُ . وقال بروكا العالم الانثروبولوجي ان المرأة أقل ادراكاً من الرجل وهو ايضاً رأي دروين كبير الطبيعيين في هـذا العصر قال ما معناه ان الرجل والمرأة ان تجاريا فالسابق السابق هو وهل يبلغ الظالع شأوَ الضليع

ونقل دَلوني عن التجار والصناع ان المرأة تثابر على العمل اكثر من الرجل الاَّ انها أقل ادراكاً منهُ ويقرب عملها من ان يكون ميكانيكياً اكثر من ان يكون عقلياً . ففي المطابع تحسن اعادة صفّ الكتب المطبوعة ولا تحسن صف الكتب المخطوطة كالرجال لانها لا تفهمها نظيرهم . وقال ايضاً اذا قيست المرأة بالرجل في اوروبا وجدت متأخرة عنهُ نحو قرن : فبينما الرجل يشتغل بالتاريخ والفلسفة والعلم تشتغل هي بمطالعة الاقاصيص وكتب الادب . نعم انهُ حصل اليوم في اوروبا واميركا ثورة في خواطر النساء فنهضنَ يطالبنَ الرجال بالاعمال التي انفردوا بها وينازعنهم المراكز العلمية وقد صار عـدد غير قليل منهنَّ طبيبات غير انهُ لا يعلم انهنَّ سرنَ الا على خطواتهم مقلدات غير مخترعات وعلى المستقبل ان ينبئنا بما اذا كنَّ يستطعنَ اكثر من ذلك

والخلاصة من كل ما تقدم ان الذكر في الانواع العالية يمتاز على الانثى بشدة التغذية وبالنتيجة بالقوة العضلية والعقلية ايضاً لانه يوجد نسبة بين الحياة النباتية الخارجة عن سلطان الارادة وحياة النسبة الواقعة تحت هذا السلطان فالرجل لما كان يتغذى اكثر

من المرأة ويولّد قوة اكثر منها كان ضرورة اقوى منها جسدياً وعقلياً

ومما ينبغي التنبيه اليهِ هنا ان الفرق بين الذكور اشد منهُ بين الاناث وذلك يرى في الحيوان والانسان فان الرجال من الشعب الواحد بل من العائلة الواحدة يفرقون بعضهم عن بعض في القامات ولون الشعر والقوة العضليـة والصوت والمشارب حتى الخط ايضاً اكثر جداً مما يفرق النساء بعضهنَّ عن بعض . وشدة التباين من علامات الارتقاء كما لا يخفى على علماء هذا المذهب

* * *

هذا نظرٌ في المسألة من حيث الانواع . واذا نظرنا اليها الآن من حيث الفروع البشرية أعني بالمقابلة بين الشعوب المختلفة فنجد نفس النتيجة التي وجدناها في الانواع أعني ان المرأة تحط عن الرجل كلما كان الانسان اعرق في الحضارة والمدنية وتساويه او ترتفع عنهُ كلما كان اقرب الى البداوة والخشونة جسدياً وعقلياً . وشهادات السياح التي تؤيد ذلك لا يحصيها عد فنقتصر منها على ذكر اليسير فراراً من التطويل : حكى بستيان في رحلتـه ان نساء هجج افريقية اشد من الرجال وانهنَّ يسدن عليهم ويحاربنَ نظيرهم وهنَّ كذلك على شهادة مينرس في جزيرة كمشتكا وجزيرة جاڤا وفي بعض قبائل اميريكا الجنوبية وفي كوبا . وحكى فولي ان المرأة تسود على العائلة في بعض قبائل السود حتى انها تضرب الرجل

وقال بروكا ان طول عظم الزند في الاسود بالنسبة الى عظم العضد باعتبار طول العضد مائة هو ٧٩٫٤٣ وفي امرأتهِ ٧٩٫٣٥ والفرق ثمانية اجزاء من مائة جزءٍ وفي الاوروباوي ٧٣٫٨٢ وفي امرأتهِ ٧٤٫٠٢ والفرق بينهما عشرون جزءًا من مائة جزءٍ وعليهِ فالاوروباي اعلى من امرأته اكثر من الاسود بالنسبة الى امرأته السوداء . والفرق بين الجنسين في حجم المنكب هو في الشعوب المتمدنة اعظم منهُ في الشعوب المتوحشة وهـذا الفرق يقل كلما نزلنا من الاصول العليا الى السفلى . والفرق بين الرجل والمرأة في القامة اقل في الشعوب السفلى منهُ في العليا ومعدله بين الاوروباويين ٨٦ مليمتراً حسب تعديل كواتلت و١٢ سنتيمتراً حسب تعديل توبينار وأما في الشعوب السافلة فهو اقل من ذلك جداً وفي

البوشمان والبتغون يكاد الجنسان لا يفرقان بالقامة

وأما الفرق في سعة الجمجمة بين المرأة والرجل فهو ٣٧ سنتيمتراً مكعباً من جانب الرجل لاهالي استراليا (دفيس) و ٥٩ لاهل الصين و١٢٩ لاهالي كلدونيا الجديدة (بروكا) و١٤٩ لقبائل الاسكيمو و١٥٠ لعموم سكان فرانسا و٢٠٣ لسكان بريطانيا و٢٢١ لسكان باريز على قول بروكا ورجحان هذا الفرق من جانب الرجل يكون اعظم كلما كان الشعب ارفع (هشك وبافيس)

* * *

وحكى بوشت ان النساء في السودان يشبهن الرجال في الصورة وذكر غيرهُ عن غيرهم ما يضاهي ذلك مما يستفاد منهُ ان اختلاف الصورة الظاهرة بين الرجل والمرأة يكون اقل كلما كان الشعب ادنى . وما هو كائن اليوم في القبائل السافلة الحاضرة كان ايضاً في القبائل السافلة الغابرة . ومما ذكره دلوني دليلاً على ذلك ان بعض الشعوب في القديم كان النساء يحكمن عليهم كسميراميس وكليوبطرا وزنوبيا الخ . ونحن وان كنا نعتقد صحة القاعدة وهي ان تغلب الرجل على المرأة من ضروريات الارتقاء والضد بالضد انما لا نعتقد صحة الاستشهاد الذي أُتي بهِ عن الملكات المذكورات لانهُ لا يبعد ان تكون سيادتهنَّ قد استتبَّت لهنَّ لاسبابٍ اخرى إما لارثٍ ملوكي وإما لنبوغٍ غير اعتيادي وقيامهنَّ بعبءِ الملك ليس دليلاً قاطعاً على ان كل نساءِ شعوبهنَّ كنَّ ارقى من رجالهم والاَّ لوجب ان نطلق هذا الحكم على ضيوفنا الذين تحكم عليهم ملكة وهم ارفع جداً من ان يوصفوا في المقام الذي يضعهم فيهِ هذا القول بل هم ارفع من كل شعب آخر وهم هم السابقون في مضمار الارتقاء البشري بلا منازع . وذكر ديودوروس ان رجال الصقالب ونساءهم في القديم كانوا متشابهين وبخلاف ذلك اليونان والرومان فان الفرق بين الرجل والمرأة عندهم كان عظيماً جداً جسدياً وعقلياً

والغريب ان نساء الاجيال التي عاشت قبل التاريخ كانت نسبة سعة جمجمتهنَّ اعظم منها في نساء اليوم . قال بروكا وهذا يظهر منهُ ان المرأة كانت في ذلك العهد تقاسم الرجل الاعمال اكثر منها في هذا العهد . والخلاصة مما تقدم ان امتياز المرأة على الرجل

قد يرى احياناً في الشعوب السافلة الحاضرة والغابرة ولكنهُ لا يُرى البتة في الشعوب العالية وانما يرى فيهم عكس ذلك اي امتياز الرجل على المرأة دائماً

* * *

ولنتقدم الآن الى النظر في المسألة من حيث الاسنان . وهنا نجد ايضاً نفس النتيجة التي وجدناها في الفروع والانواع اعني ان الاناث يمتزنَ على الذكور امتيازاً الى أجل في اول سنيّ العمر ثم يستتب الفوز بعد ذلك لهؤلاء . فقد ذكروا ان البنات يفقنَ الصبيان في الطول من سن ١٠ الى ١٥ سنة . وبعض الانثروبولوجيين زعموا ان البنت من سن ١٠ الى ١٢ تكسب رطلاً اكثر من الصبي في السنة . وأما بعد السنة السابعة عشرة فالاناث يقفنَ والذكور يستمرون على النموّ . والحال كذلك ايضاً في العقل ففي المدارس التي يجتمع فيها الصبيان والبنات معاً رأوا ان البنات لغاية سن اثنتي عشرة سنة يسبقنَ الصبيان ويفقنهم ذكاءً وأما بعد ذلك فالصبيان هم السابقون

ويستفاد مما تقدم ان المرأة في النمو اسبق من الرجل جسدياً وعقلياً وادبياً وهذا ما حمل بعضهم على ان يظنها اعقل منهُ . وقد علل بوفون الطبيعي الفرنساوي ابطاء الرجال بقولهِ « ان الرجال لما كانوا اكبر واقوى من النساء اعني لما كان بدنهم اشد واعظم وعظامهم اصلب وعضلاتهم اقوى ولحمهم اكنز مما في النساء كان من الضروري ان يكون زمن نموّهم اطول من زمن نموهنَّ » وقال كابنيس « ان المرأة اسرع نمواً وانحطاطاً معاً من الرجل لا تلبث ان تشب حتى تهرم وليس بين انتقالها من سن الصبا الى سن الهرم فترةٌ تذكر »

والنمو السريع دليل على الانحطاط ويرى حسب مباحث دلوني في جميع الاناث كما يمكن تحققهُ من النظر الى سرعة نمو اناث الحيوانات الاهلية بالنسبة الى ذكورها . وانما كانت هذه السرعة في النموّ التي ترى في الحيوانات وفروع البشر السفلى علامة انحطاط لانهُ يعقبها وقوف النموّ دائماً . قال بختر في كتابهِ الذي عرّبناه تحت عنوان شرح بختر صفحة ٩١ ما نصهُ « ان في الطبيعة ناموساً عاماً وهو ان صغار الحيوانات والقرود والبشر الذين هم من ادنى جنسهم يتشابهون اكثر من البالغين في تكوين الجمجمة وقابلية العقل

فان صغار القرود خاصة يشبهون اطفال البشر جداً باستدارة جمجمتهم ولا تميز فيهم صفات القرد الاَّ مع السن وحينئذٍ تظهر المباينة فتبدو الانخفاضات والبروزات والشكل الزاوي وبروز الوجه عن الجمجمة وكذلك يحصل في الاخلاق فتزداد القرود شراسةً وقساوة ولا تذعن للتربية كلما زادت في السن وهكذا ايضاً اولاد السود كما يعلم من روايات يوثق بها فانهم يظهرون في المدارس ذكاءً وقابلية للتهذيب لا مزيد عليهما فاذا بلغوا اشدهم تخلقوا باخلاقهم الوحشية وخسروا كل ما اكتسبوه بالتعليم كأن لم يكن شيءٌ من ذلك » اعني ان الصفات الجسدية والعقلية تكون مشتركة بين صغار الانواع والفروع في اول سني الحياة ثم تتباين فيهم بمقدار تباين الانواع والفروع نفسها فيقف نموّ بعضها السافل او يسير في خطتهِ ويستمر نمو البعض الآخر المرتقي . والوقوف علامة انحطاط واستمرار النمو علامة ارتقاء

* * *

وفي الجملة فمعظم الفرق بين الرجل والمرأة يكون في الكهولة اي عند منتهى النمو واقله في سن الصبوة والشيخوخة سواءٌ نظرنا الى البدن كله او الى كل عضوٍ من اعضائهِ فانهُ لا يوجد فرق ما بين الذكر والانثى في الحياة الجنينية ثم يكون الفرق قليلاً عند الولادة ويبلغ معظمهُ في الكهولة ثم يتناقص في الشيخوخة

فالطفل يكون اطول من الطفلة عند ما يولدان بسنتيمتر واحد فاذا بلغا منتهى النموّ اي متى صار هو رجلاً وهي امرأة زادها بستة وثمانين مليمتراً حسب تعديل بعضهم (كواتلت) وباثنى عشر سنتيمتراً حسب تعديل غيره (توبينار) ثم يميلان للتساوي بعد ذلك لان الرجل يقصر اكثر من المرأة

ولنا نفس النتيجة من مقابلة الوزن فان معدل وزن الطفل المولود حديثاً ٣٢٥٠ غراماً والطفلة ٢٩٠٠ غرام اعني ان الذكر يزيد الانثى ٣٥٠ غراماً وقلما يفرقان بعد ذلك الى ما بعد السنة الثانية عشرة ثم يزيد هذا الفرق جداً برجحان الذكر ويبلغ حسب تعديل بعضهم (كواتلت) من اربعة الى خمسة كيلو غرامات ثم يتناقص في الشيخوخة . وذكر بعضهم ان هذا الفرق بينهما كيلو غرام من سن ٢ الى ٧ و٦ كيلو غرامات من سن ١٤

سن الى ٢١ و٧ من سن ٢١ الى ٢٨ و ١١ من سن ٤١ الى ٥٦ ثم يتناقص الى ٩ من سنّ ٥٦ الى ٦٣ والى ٨ من سن ٦٣ الى ٧٠

وأما حجم الجمجمة فحسب تعديل بعضهم (ليثر زيك) ان دائر جمجمة الذكر عند الولادة اكبر من دائر جمجمة الانثى بسنتيمتر واحد ثم يزيد هذا الفرق بعد البلوغ لاستمرار نمو جمجمة الرجل ووقوف نمو جمجمة الانثى بعد ذلك

وأما وزن الدماغ (فحسب تعديل كولكر) يزيد دماغ الذكر عن دماغ الانثى باربعين غراماً عند الولادة و٥٠ عند سن سنة واحدة و٧٠ عند سن ٣ سنين و١١٠ في سن ١٠ و١٥٠ من سن ٢٠ الى ٦٠ . ثم يتناقص هذا الفرق من بعد السن المذكور فينقص دماغ الرجل في الهرَم ٨٤ غراماً من معدَّل وزنهِ عند منتهى النمو ودماغ المرأة ٥٩ غراماً . وهذا الفرق التشريحي يرافقهُ فرق في القوى العاقلة والادبية ومنهُ يفهم لماذا يشترك الذكر والانثى بالالعاب في سن الحداثة ثم يفترقان كثيراً في العقليات في سن البلوغ ثم يتقاربان ثانية في الهرَم . وعلى هذه النسبة ايضاً يجري باقي الفروقات في شكل العظام والتغذية وتركيب الدم الخ. واما النبض فهو ١٣٦ في الجنين الذكر و١٣٨ في الجنين الانثى. وذكر بعضهم ان هذا الفرق اي زيادة نبض الانثى على الذكر هو نبضة واحدة من سن ٢ الى ٧ و٦ نبضات من سن ١٤ الى ٢١ و٧ من سن ٢١ الى ٢٨ و١٠ من ٣٥ الى ٤٢ و١١ في سن ٥٠ ثم ٩ من ٥٦ الى ٦٣ و٨ من سن ٦٣ الى ٧٠ . ويطول بنا الشرح جدًّا لو اردنا استيفاء باقي الفروقات مفصلاً لذلك نكتفي بما مرَّ

والخلاصة مما تقدم ان الانثى تفوق الذكر في بعض الامور في الاثنتي عشرة سنة الاولى ثم يفوقها الذكر بعد ذلك في الجمعيات المتمدنة الى منتهى النمو حيثما يبلغ الفرق معظمهُ وهذا يكون بين سن ٤٠ و٥٠ ثم يتناقص هذا الفرق في الشيخوخة والهرَم

وهذه الملاحظات المتقدمة المأخوذة من علم مقابلة الحيوان وتشريح الاعضاء ومنافعها تنبئنا لماذا يميل الجنسان اي الذكر والانثى لان يفترقا كلما صعدا من طبقات البشر السفلى الى العليا . ففي الطبقات السفلى تكون الصفات العقلية والادبية بين الرجل والمرأة متساوية لذلك كانا كلاهما اقرب الى الاتفاق من الاختلاف وليس الامر كذلك في الطبقات

العليا الرفيعة المدارك فانهُ لما كان فيها الفرق بين الرجل والمرأة عظيماً كانا اقرب الى الاختلاف لاختلافهما بالافكار والاحساسات والمشارب الخ وهو اكثر في سكان المدن منهُ في سكان القرى وآخذ في التزايد سنةً فسنة كما نبه الحكماء الى ذلك منذ زمان طويل

* * *

على ان زعماء المساواة يدَّعون ان هذا الفرق بين الرجل والمرأة جسدياً وعقلياً سببهُ عدم تساويهما في الرياضة والتعليم وانهُ اذا تساوت احوالهما المعاشية والتهذيبية تساويا في القوَّة والعقل . واذا دققنا النظر لا نجد هذا الاعتراض في محله . ففي العصور الغابرة حين كانت الامم غارقة في ظلمات الجهل لم يكن احد الجنسين يعلّم اكثر من الآخر وفي هذه الايام نجد في البلدان المتمدنة عدداً وافراً من الجنسين متروكين على الفطرة بحيث لا يصحُّ ان يقال ان هذا الفرق نتيجة التعليم والتهذيب بل اليوم اذا نظرنا الى الفنون التي تعلمها النساء كما يعلمها الرجال واكثر منهم ايضاً كفنَّ الموسيقى في اوربا فلا نجد من النساء من نبغنَ كما نبغ الرجال ومع ان عدد المتعلمات هذا الفن اكثر من عدد الرجال فلا تجد منهنَّ من ألَّفت فيهِ او استنبطت شيئاً جديداً بل جميع المؤلفين من الرجال . وما قيل عن فن الموسيقى يقال ايضاً عن فن التصوير وكذا صناعة الطبخ نفسها فحتى الآن لم يستطع النساء ان يبارينَ الرجال المتعاطين هذه المهنة مع ان عددهنَّ بالنسبة الى عددهم وافر جداً والمانع في هذا وسواه ليس عدم تساوي الرجل والمرأة بالوسائط بل عدم تساويهما بالقابليات كما ترى في المدارس التي يعلَّم فيها الصبيان والبنات معاً فان البنات كما تقدم يفقنَ الصبيان لغاية سن ١٢ سنة ثم يتقهقرن عنهم بعد ذلك مع ان الوسائط واحدة في الحالين وما سبب ذلك الاَّ لانهنَّ من طبعهنَّ اضعف منهم قابلية والاَّ لما وجب ان يتأخرنَ عنهم بعد هذا السن لو كنَّ من طبعهنَّ قادرات . وسبقهنَّ الصبيان في اول سني الحياة دليل على سرعة نموهنَّ بالنسبة الى نموَّهم وهذه السرعة من علامات الانحطاط كما قلنا في ما تقدم

والخلاصة من جميع ما تقدَّم ان غلبة الانثى على الذكر لا ترى الاَّ في بعض انواع الحيوانات السفلى او في بعض فروع البشر السفلى ولا يرى تساويهما الا في ما كان فوق

ذلك قليلاً كما في بعض الانواع الحيوانية والفروع البشرية السافلة وكما في احداث الامم المتمدنة ومشايخهم اذ ان الطرفين يستويان في كل امر وأما في الانواع الحيوانية العليا وفي فروع البشر المرتقية وفي منتهى النمو فالغلبة دائماً للذكر جسدياً وعقلياً وادبياً ولا تكون غير ذلك الا اذا انقلب الموضوع وانعكس المطبوع . وعليه فنطلب في المستقبل ان لا يقدَّر لنسائنا ان يتغلبنَ على رجالنا او يساوينهم ولا نظن ان نساءنا يرضينَ غير ما طلبنا بناءً على ما عهدن من سنن الارتقاء

* * *

فهذا أيها السادة نظر عام يضع المسألة في مقامها الطبيعي ويرشدنا الى الحكم فيها حكماً صحيحاً عادلاً فلا نحقّر المرأة كما فعل شوبنهور الالماني احد فلاسفة هذا العصر حيث جعلها تحت العجماوات وقال انها من شر المخلوقات وهو قول فيلسوف قانط (١) ولا نبالغ في تعظيمها كما فعل ديدرو الفرنسوي احد فلاسفة العصر الحالي حيث جعلها فوق الرجل وقال ان الذي يتكلم عنها ينبغي لهُ ان يغط قلمه في قوس قزح ويرمّل خطه بغبار اجنحة فراش الحقل وهو تصوُّر شاعر غاوٍ بل نضعها في مقامها الحقيقي الذي يليق بها والذي جُعلت فيهِ أعني عضواً لازماً للهيئة الاجتماعية تابعةً للرجل في ارتقائه مساعدةً لهُ متممة ما نقص من كماله مخففة عنه مشاق الحياة الداخلية كما هو يذلل لها مصاعب الحياة الخارجية حاضنة اولادها تحت جناحي حنوّها وتدبيرها عن طبع وتهذيب كما هو يسهر على راحتهم بعين سعيهِ واقدامهِ عن سليقة ومعرفة . لا تنازعهُ هي ما لا تجديها المنازعة فيهِ نفعاً ولا يخسرها هو حقاً اعترف لها بهِ مقامها في الهيئة الاجتماعية متقاسمين الاعمال كلٌّ منهما في دائرتهِ غير متطاول الى دائرة سواهُ وبذلك يتم نظام العائلة البشرية التي هي ام الاجتماع الانساني

(١) وكان يعرف المرأة انها طويلة الشعر قصيرة الفكر

المقالة الثانية عشرة

المرأة والرجل وهل يتساويان * ردٌّ (١)

هم في ضميرك خيَّموا ام قوَّضوا ومنى جفونك أقبلوا ام أعرضوا
وهمُ رضاك من الزمان واهله سخطوا كما زعمت وشاتك أم رضوا

ما بال ربات الحجال وذوات اللطف والدلال برَزْنَ من خدورهنَّ غضابى . وأوسعنني لوماً وعتاباً . وفتحنَ عليَّ حرباً أعدى من حرب البسوس . واظلم من يومي سعدٍ وبوس . وما اتيت ضدهنَّ بمنكر . ولا ارتكبت في حقهنَّ ذنباً لا يُغفر

أو ماذا رأينَ في مقالتي « المرأة والرجل وهل يتساويان » من قصد التحامل عليهنَّ والاجحاف بحقوقهنَّ حتى نفخنَ في البوق وهجنَ بنات جنسهنَّ في الاقطار وتألَّبنَ عليَّ جماعات متفقات لاوّل مرة وتربصنَ في مناوأتي تربص الآساد وعهدي بهنَّ انفر من الظباء . وانا لم آتِ فيهنَّ الا بما قرَّره الواقع وشهد بهِ الحال انتصاراً لهنَّ من القوم الظالمين

أقصَّرت في مدحهنَّ ام لم ابالغ في وصف محاسنهنَّ ام لم اعترف بحقوقهنَّ . ألستُ القائل فيهنَّ « وبرَوا لها اقلاماً أقومَ من هدود الهيف اذا أخجلت سمر القنا . وطعنوا بها طعنات اوقع من لحاظهنَّ اذا رنّت سهامها في القلوب » . أفلا يعجبنَ بهذا الاطراء أو لست القائل ايضاً « ولا يبخسها هو (اي الرجل) حقاً اعترف لها بهِ مقامها في الهيئة الاجتماعية متقاسمين الاعمال كلٌّ منهما في دائرتهِ غير متطاول الى دائرة سواهُ وبذلك يتم نظام العائلة البشرية التي هي أم الاجتماع الانساني » أفلا يرضينَ بهذه المساواة

على اني أُجلهنَّ عن ان انزلهنَّ منزلة من يقول « ان النساء لا يرضيهنَّ شيء » ولعل في الامر دسيسة يدٍ مبرقعة وما هي بذات برقع (سامحها الله) (٢) افترت علينا

(١) نشرت في المجلد الثاني عشر من المقتطف سنة ١٨٨٧ وهي رد على بعض السيدات اللائي اعترضن على المقالة السابقة بكلام نشر في المقتطف ايضاً

(٢) اشارة الى ان الكاتب الحقيقي او المحرك رجل قصد تحريك الشر للمناظرة اوالمداعبة

ذلك فاقتضبت عباراتي وحوّلت اشاراتي وابدلت قولي وغيرت منقولي اعتداءً عليَّ وتملقاً لهنَّ وصلت بيننا نار هذه الحرب وهنَّ منها يشهد الله برائء وانا لست منها في شيء بل تراني اقدّم فيها رجلاً واؤخر اخرى. والاَّ فهنَّ ارفع من ان يعدُدن تقرير الواقع تحاملاً والانصاف احجافاً

قد وقع الصلح على غلتي فاقتسموها كارةً كاره
لا يدبر البقّال الاَّ اذا تصالح السنور والفاره

* * *

رحماكنَّ سيداتي لو كان لي ان اصف المرأة كما اريد واشتهي لوصفتها كما قال احد شعراء الانكليز « ان الله خلق الرجل اولاً على سبيل التجربة ثم خلق المرأة أخيرًا » لتكون من طينة ارقى ولكن من اين لي ذلك وانا لم اتجشّم البحث في هذا الموضوع واجعل نفسي هدفاً لسهام الاغراض الا منقاداً للعلوم الطبيعية لا للتصورات المجونية كمؤرخ يصف الوقائع ويشهد الاحوال ابتغاء رفع شأن المرأة في العمران بمعرفة مقامها الطبيعي فيهِ ولا ذنب لي الا ذنب الصادقين في الود المخلصين في القول والا فما المانع من ان تساوي المرأة الرجل ولماذا لم تتغلب عليهِ بل تركتهُ يسن الشرائع المحجفة بحقوقها ويقوى عليها من اوَّل الامر

وانَّى يمكن ان تكون بينهما هذه المساواة وهما مختلفان بالطبع من اصل الفطرة في التركيب والقابليات والواجبات . فطلب المرأة مساواة الرجل كطلب الرجل مساواة المرأة امرٌ مستحيل واني لاعجب كيف يحاول بعض الناس اثبات هذه المساواة وما مثله الاَّ كمثل من يحاول ان يساوي بين اعضاء الجسد المختلفة. ألعله يجهل ان اختلاف التركيب يوجب اختلاف القوى والافعال

فبقي علينا اذن وقد تقرر هذا الاختلاف كما تقرر بين اعضاء الجسد ان نعرف نسبتهُ فيهما ولا نبحث في ذلك من حيث اهميتهما في الجسم الاجتماعي فانهُ لا خلاف في ان كلاًّ منهما عضوٌ مهم شديد اللزوم لكمال الهيئة الاجتماعية كما ان كل عضو من اعضاء الجسد شديد اللزوم لكماله. وقد تداركتُ ذلك في مقالتي السابقة حيث قلت « بل نضعها

(المرأة) في مقامها الحقيقي الذي يليق بهـا تابعة الرجل في ارتقائهِ مساعدةً له متممة ما نقص من كماله مخففةً عنهُ مشاق الحياة الداخلية هو كما يذلل لها مصاعب الحياة الخارجية حاضنة اولادها تحت جناحي حنوّها وتدبيرها عن طبع وتهذيب كما هو يسهر على راحتهم بعيني سعيهِ واقدامه عن سليقة ومعرفـة » بل نبحث في نسبة هذا الاختلاف من حيث تفاوتهما في القوى جسدياً وعقلياً

* * *

يعلم قراء المقتطف الاغر اني نشرتُ في عدديهِ السادس والسابع بتاريخ هـذا العام مقالة تحت عنوان « المرأة والرجل وهل يتساويان » ضمَّنتها خلاصة مباحث الطبيعيين وعلماء الاخلاق المتأخرين وصرفتُ فيها النظر عن اقوال المتقدمين ولم اورد من اقوالهم الا شيئاً يسيراً على سبيل الاستطراد لا الاستشهاد وقيدت نفسي كل التقييد بعلوم الاختبار واقتصرت على ذكر الوقائع المقررة واجتنبت على قدر الطاقة التعرُّض للاسباب الاَّ فيما ندر . كل ذلك لكي احصر الموضوع في دائرة لا يجد فيها المتقولون محلاً لكثرة الظنون حسماً للنزاع وحرصاً على الحقيقة ان تحجبها غياهب الاوهام وتخدشها عواصف الاغراض اذ هي كما قيل

خطرات النسيم تجرح خدَّيـــهِ ولمس الحرير يدمي بنانه

وقـد رأينا مما قرَّره علماء طبائع الحيوان كما قلنا في ما سلف ان الانثى اشد من الذكر في الحيوانات السافلة واضعف منهُ في الحيوانات العالية ومساوية لهُ في ما كان بينهما واستنتجنا من ذلك ان امتياز الانثى على الذكر من صفات الحيوان السافل وان امتياز الذكر عليها من صفات الحيوان العالي . وابنَّا ذلك هناك مفصَّلاً بآيات بيناتٍ طبيعية وادبية وعقلية . وظننتُ ان هذا البيان كاف لان يكون القول الفصل لما فيهِ من الصراحة والوضوح والاستناد الى الادلة التشريحية والفزيولوجية والبسيكولوجية التي يقال عندها قطعت جهينة قول كل خطيب . وما قصدت الا ان اجعله قاعدة يختلف اليها عند البحث في هـذا الموضوع وما اتيت فيه بحرف يشير الى وجوب تحقير المرأة واهمال تعليمها بل بالضد من ذلك قصدت ان ابين مقامهـا الحقيقي في الهيئة الاجتماعية وان انبه الى أهمية

هذا المقام لئلا يشغلها عنهُ شاغل يشمخ بها الى ما سواه فتقصّر فيهِ و يصيبها كما في قوله

حسد القطا فاراد يمشي مشيها فاصابهُ ضربٌ من العقّال

ولئلا يذهل الرجل عنهُ فلا يوفيها حقوقها فيسوء مصيراً وكل ذلك حرصاً على انتظام العائلة البشرية وتحسن حال الانسان في العمران بمعرفة كل من الرجل والمرأة حدَّهُ فيقف عنده . وكنت انتظر من السيدات ان يعددنني بذلك نصيراً لهنَّ وخير نصير

وصاحباً كالزلال يمحو صفاؤه الشك باليقين

وان ارى منهنَّ تصويباً ينشطني في الدفاع عنهنَّ اذ ادخل الموضوع من ابوابهِ لان المدافع عنهنَّ في غير اساليب الصواب يكون لهنَّ شر نصير . ولكن لا اعلم كيف اقابل حضرات السيدات اللائي تصدّين للردّ عليَّ زاعمات انهنَّ وجدنَ في مقالتي مطاعن ففوقنَ نحوي سهام اللوم والتعنيف ولولا الخوف من ان يستحكم هذا الظن في اذهان جمهورهنَّ بمطالعتهنَّ مقالات نصيراتهنَّ و يتناسينَ حقيقة مقالتي لتقادم عهدها فينصرفنَ الى الوهم بانني متحامل فيها عليهنَّ لاقتصرت على مقابلتهنَّ بالشكر لقاء اطنابهنَّ في مدحي واستغنيت عن هذا الايضاح الذي لا ارى والحالة هذه بدًّا منه ولا كتفيت مؤونة الرد على اعتراضاتهنَّ لقيام بعضهنَّ على الوهم وسقوط البعض الآخر من نفسهِ بمراجعة نفس مقالتي

* * *

(١) انكرت عليَّ حضرة السيدة الفاضلة م . ا . ي. قولي ان الفرق بين المرأة والرجل في القوى انما هو من اصل الفطرة وذهبت خلافاً لي الى انهُ من فرق التعليم والرياضة والعادات وزعمت انها تؤيد قولها من كلامي المتناقض حيث قالت برشيق عبارتها « اجتريء ان اقول ان بعض اقواله متناقضة ... أو ليس هو القائل مع العلامة بروكا : ان زيادة اتساع الجمجمة في النساء قديماً عما هو عليهِ حديثاً كانت (لان) المرأة كانت في ذلك العهد تقاسم الرجل الاعمال اكثر منها في هذا العهد » واستطردت من ذلك الى القول « فما المانع من انهُ لو دامت لها هذه المقاسمة الى هذا الزمان لبقيت مثله أو أسمى منهُ » اقول نعمَ النتيجة لو صحت المقدّمة ونعمَ الحجة عليَّ لو صح النقل عني فعفواً ايتها

السيدة لم اقل ذلك وهـذا قولي « الغريب ان نساء الاجيال التي عاشت قبل التاريخ كانت نسبة سعة جمجمتهنَّ أعظم منها في نساء اليوم قال بروكا وهذا يظهر منهُ (أنَّ) المرأة كانت في ذلك العهد تقاسم الرجل الاعمال اكثر منها في هذا العهد » لا «لانها» وهو على حد قولي ايضاً بعـد ما تكلمت عن تقارب الرجل والمرأة تشريحياً في اوائل الحياة وتباينهما في اواسطها ثم تقاربهما بعد ذلك « وهذا الفرق التشريحي يرافقه فرق في القوى العاقلة والادبية ومنهُ يفهم لماذا يشترك الذكر والانثى بالالعاب في سن الحداثة ثم يفترقان كثيراً في سن البلوغ ثم يتقاربان في سن الهرم » فعلى مقتضى قول حضرتها يجب ان يفهم من هـذا القول ايضاً ان اقتراب الرجل والمرأة وافتراقهما تشريحياً هو لاشتراكهما وافتراقهما بالالعاب والمفهوم بالعكس ولا يخفى ما بين القولين من الفرق في المعنى وان لم يكن بينهما الاَّ زيادة حرف واحـد في اللفظ فمفهوم كلامي نتيجة ومفهوم كلامها سبب وهذا الخطأ منهـا في النقل هو سبب هذا الوهم في نسبة التناقض لكلامي ولضيق المقام اكتفي بالتنبيه اليهِ لازالة هذا الوهم ولا اشك في انه من حضرتها خطأ سهوٍ

ولا أنكر بان التعليم والرياضـة والعادات الخ تؤثر جداً في حال المرأة ويجب أن تستخدم لخيرها ولكن لا اسلّم مطلقاً بانها اذا تساوت فيها مع الرجل ساوتهُ في القوى لاسباب أعدُّها جوهرية في تكوينها وقابلياتها وواجباتهـا هذا اذا كنا نسلم ان القوى والافعال مرتبطة بتكوين الاعضاء ألا ترى ان الاشغال التي تعلمها النساء كالرجال واكثر منهم كفنّ الخياطة والطبخ والرسم والموسيقى لا تستطيع المرأة ان تساوي الرجل فيها كما قلت في مقالتي السابقة . على ان نفس مساواتها له بالتعليم والرياضة والعادات لو تأملناها جيداً لوجدناها الاَّ في ما ندر ممتنعة عليها من اصل التكوين فطلب المرأة والحالة هذه مساواة الرجل فرض مستحيل لا يجوز لها ان تضيع وقتها فيهِ وهـذا لا يحطُّ من قدرها لان عليها واجبات اخرى مهمة جداً اذا أحسنت القيام بها لم تعدم حقوقها في الهيئة الاجتماعية

* * *

(٢) اعترضت عليَّ حضرة الفاضلة السيدة ر . ح . اعتراضات شتى لا يسعني ضيق المقام الاَّ ان آتي الجواب عليها اقتضاباً لكثرة خصياتي ووجوب الرد على كلَّهنَّ صُبَّةً

واحدة لئلا يعتبنَ عليَّ اذ ان السيدات يصفحنَ عن كل ذنب الاَّ ما تُشم منهُ رائحة التفضيل بينهنَّ

قالت : اني بحثت في المرأة والرجل بحث الطبيعيين لا بحث أهل النظر وعابت عليَّ ايرادي بعض امورٍ عن المرأة اقرب الى البحث النظري منها الى البحث الطبيعي مثل قولي « ان الرجل يأكل اكثر من المرأة ولكنها انهم منهُ وان الذي يمنعها من ارتكاب الجرائم انما هو خجلها وحياؤها وحالها من الرضوخ وعوائدها التي تحجبها وضعف جسدها وانها أحيل من الرجل وأخدع لانها اضعف منهُ والحيلة والخداع سلاح الضعيف » ولا انكر بان من هذه الامور ما هو اقرب الى علوم النظر الا اني أقول ايضاً اني لم التزم البحث في الوجه الطبيعيّ الاَّ لكي اجعل للوجه النظري مجالاً اوسع وقيمةً أعظم بتمهيد السبيل له حتى يقل خطاؤه ويكثر صوابهُ اذ لا يخفى ان العلوم النظرية ليست الا الاستقراء والاستنتاج المبنيين على امور مسلمة هي عندهم كالحقائق فكلما كانت هذه الامور المسلَّمة اقرب الى الصواب كأن الاستقراء والاستنتاج المبينان عليها أصح كذلك . وأي شيءٍ اصح من العلوم الطبيعية التي هي في حكمها كالعلوم الرياضية ولذلك كان كثيرٌ من أحكام النظر المبني على هذه العلوم حكمه كحكم اليقين . على ان من الامور النظرية المتقدم ذكرها ما هو مبنيٌّ على المراقبة والاختبار فقول حضرتها « فباي مقياس قاسوا نهامة الرجل والمرأة حتى عرفوا انها أنهم منهُ » مردود عليهِ بالقول إنهم قاسوها بمقياس المراقبة وان لم يرضها ذلك فبمقياس « الاكل » ولا اعلم ما الذي ساءها من هذا القول وهو ليس قولي بل قول جمهور العلماء المتبحرين في درس طبائع الحيوان ومراقبة افعاله . وان لم يقنعها ذلك فنحن نأتيها بتعليل فلسفي ينطبق على هذا القول لعلها تقنع فلا يخفى ان بين عوائد الرجل وعوائد المرأة بوناً بعيداً فالرجل كثير الحركة كثير السعي . والاشغال التي تطلبها احتياجاتهُ شاقة وتطلب منهُ جهداً جهيداً وسعياً عظيماً خارج مسكنهِ فلا يتأتى له ان يتناول الطعام الا في اوقات متباعدة ولذلك كان لا يجلس على الطعام الا وقعات قليلة ويأكل كثيراً . بخلاف المرأة فان سعيها قاصرٌ على تدبير منزلها وحركتها بالنظر الى ذلك قليلة والاشغال المطلوبة منها وان كانت مهمة الاَّ انها غير شاقة بالنسبة الى اشغال الرجل

همومهِ وهي دائمًا في البيت وهو دائمًا بعيدٌ عنهُ ولذلك كانت تأكل أقلَّ من الرجل وتجلس على الطعام وقعات اكثر منهُ ولهذا كانت أنهم منهُ

وأما كون الذي يمنعها من ارتكاب الجرائم « انما هو خجلها وحياءها وحالها من الرضوخ وعوائدها التي تحجبها وضعف جسدها » . فهو قول بعضهم وكنت اود ان اسلم مع حضرتها بان الذي يمنعها من ذلك انما هو « لانها اميل الى السلام وحب الاتفاق وكره المآثم والشرور » الى آخر ما قالت لاني اريد ان تكون لها هذه الصفات لولا ان هذا التعليل نفسهُ قاصرٌ ويحتاج الى تعليل آخر يعرف منهُ لماذا هي كذلك فلا شك انها كذلك لانها أضعف واذلُّ من الرجل وهذا يولد فيها الخوف ولانها محجبة وان لم تبقَ مقنَّعةوهذا يولّد فيها الخجل والحياء وما ادلهما من صفتين لا ارضى للسيدات ان يخجلنَ منهما

وعلى نفس هذا التعليل يعالل لماذا المرأة احيل واخدع من الرجل لكن لما كانت حضرتها لا ترى وجه اقناع في قولي « لانها اضعف منهُ والحيلة والخداع سلاح الضعيف» كان لا بد لي من بسط الكلام عليهِ على وجه اعم تأييداً لهذه الحقيقة النظرية التي هي في ثبوتها كالحقائق الطبيعية المقررة ولا ننظر اليها في انواع الحيوان حيث نرى آلافاً من الامثلة التي تدلنا على ان الحيلة هي كل قوة الحيوان الضعيف لردع عدوان الحيوان القوي عنهُ أو لاخذه في شركه ولولا ذلك لما امكن بقاءه حيًا مع خصمه القوي بل ننظر اليها في احوال الامم في العمران فلا يخفى ان الشرائع الحاكمة على الامم كانت في بدء الامر استبدادية ظالمة ولم تزل غير متساوية في كل الاقطار ومعلوم ان الاستبداد يورث الخوف في قلوب الرعية فلا تجد ما يحميها من غضب حاكمها المستبد سوى التملق لهوالرياء بهِ . والرياء يورث الخداع والكذب وما شاكل ويستحكم فيها ذلك بطول لبثها محكومة بالاستبداد وينتقل في نسلها بالوراثة خلفاً عن سلف حتى يصير فيها اخيراً طبيعةً لا تزول منها بالتعليم والحرية حتى يمرّ عليها منهما بقدر ما مرَّ عليها من عصور الجهل والاستبداد ولذلك كنت ترى القوم الذين عاشوا تحت ظل الاستبداد واستحكم فيهم الرياء قوماً لا يصدقون ولا يصدَّقون وقلَّما تجد بينهم صديقاً مخلصاً ولو خرجوا الى نور العلم والحرية ولست تجد بينهم ذلك حتى يمر عليهم فيهِ بقدر ما مر عليهم محجوبين عنهُ . وما قيل هنا